

دور المكاتب العربية في توطيد السلطة الفرنسية في الجزائر

الأستاذ سلاماني محمد القادر كلية الآداب واللغات جامعة بشار

المقدمة:

اعتقدت السلطات الفرنسية في جميع المقاطعات الجزائرية على مساندين لها يخدمون مصالحها ضد إخوانهم الجزائريين، فقد تمكنت قوات الجيش الفرنسي من تجنيد عدة فرق منها، فرقة الصابحية وفرسان الدواير والزماله وفرقة الزواف يعملون تحت قيادتها سعيا منها للقضاء على المقاومة الشعبية الوطنية، ومصادر تمويلها والعمل على التفرقة بين أبناء الشعب الجزائري، حتى لا يتسنى للأمير عبد القادر راند المقاومة الشعبية تجنيد عدد كبير من الجزائريين ضد قوات الاحتلال الفرنسي. فالمشروع الفرنسي كان يقضي بإنهاء وإضعاف قوى المقاومة الشعبية، وتحقيق أهدافه وفكركه الاستعمارية الاستيطانية بإلحاق الجزائر بالدولة الفرنسية خدمة لمصالح الشعب الفرنسي، تجسيدا لذلك قامت السلطات الفرنسية باستحداث طرق جديدة للسيطرة على الجزائريين ومن أهم الوسائل المتخذة وضع مكاتب عربية تقوم بدراسة شاملة حول بنية الشعب الجزائري، من حيث العادات والتقاليد والدين، فما مفهوم هذه المكاتب العربية، وما أسسها وتنظيماتها؟ وما دورها وهدفها أهدافها الاستعمارية؟ وما مدى تأثيرها على المجتمع الجزائري؟.

1- تعريف المكتب العربي :

حسب فرديناند هيغونيت "Hugonet" المكتب العربي هو : " حلقة وصل بين الجنس الأوربي الذي استوطن القطر الجزائري منذ 1830 والسكان المحليين الذين يقطنون البلاد من قبل ولا يزالون إلى الآن .".

2- نشأة المكاتب العربية :

تزامن إنشاء المكاتب العربية وفق الجهود المبذولة من قبل قوات الاحتلال الفرنسي، من خلال حملاته العسكرية التوسعية على حساب الأراضي الجزائرية بتطبيق حرب الإبادة وسياسة الأرض المحروقة التي تبنتها السلطات الفرنسية بهدف إخضاع السكان المحليين، وقد تمكنت القوات الفرنسية من بسط نفوذها الاستعماري بالجزائر، اعتمادا منها على التقرب من الشخصيات المحلية، وتكليفهم بمراقبة السكان، وتم اختيار هذه الشخصيات حسب نفوذ قوات الاحتلال الفرنسي بالمنطقة، بتعيين آغا للعرب.

تأسست أول هيئة رسمية من المكاتب العربية بقيادة الجنرال دوروفيغو "De Rovigo" "الحاكم العام بالجزائر" سنة 1833، وسميت بالمكتب العربي ويطلق عليها مصلحة الشؤون العربية، اعتقدت على مترجمين مختصين في الشؤون العربية للاتصال برؤساء القبائل في جمع أنحاء البلاد، وطماثهم بأن الإدارة الفرنسية لا تنوي أن تلحق الضرر بهم إذا ما تعاونوا معها وساعدوها ضد المقاومة الشعبية الوطنية، وكانت أول شخصية عينت لهذا المنصب النقيب دولامورسيير "De LaMoricière" الذي كان يجيد الحديث باللغة العربية، حيث أعطى هذا الضابط دفعا كبيرا لهذه المصلحة للدعاية من أجل سياسة التوسع الاستعماري، وكانت هذه الهيئة تعمل على إخضاع القبائل الجزائرية للنفوذ الفرنسي، ومهدت لإدارة الشعب الجزائري.

في أفريل 1837م تم إعادة تأسيس إدارة الشؤون العربية بقيادة الرائد "بليسي" Pellissier"، وكلف بمراقبة تحركات قوات المقاومة الشعبية بقيادة الأمير عبد القادر، لقد قدم بليسي استقالته وخلفه النقيب "ألوفيل" Allanville"، كما قام الجنرال فالي "valée" بمقاطعة قسنطينة بتنصيب بعض شيوخ قبائل المنطقة، مثل سي حمودة ولد سيدي الشيخ تحت وصاية السلطة الفرنسية، والهدف من هذا النظام الإداري الفرنسي خدمة المصالح الفرنسية بالجزائر، والتعرف على بنية المجتمع الجزائري، والعمل على تهيئة تفكيكه وإخضاع شعبه.

كانت إدارة الشؤون العربية سنة 1837م مسؤولة عن عملية الاتصال برؤساء القبائل، والتفاوض معهم وإقناعهم بالتعاون مع قوات الاحتلال الفرنسي مقابل احترامها لأساليب عملهم وتقاليدهم وعاداتهم وتوفير الأمن والاستقرار بمناطقهم وحماية مصالحهم.

استغل الجنرال بيجو "Bugeaud" نفوذ رؤساء القبائل وخاصة بالناحية الشرقية من البلاد، وتم تأسيس إدارة الشؤون العربية في 16 أوت 1841م، وعين الضابط دوماس "Daumas" رئيسا لها، أنشئت إدارة المكاتب العربية بمقتضى مرسوم وزاري المنعقد في 1 فيفري 1844م، لقد دخل الجنرال دوماس تعديلات على إدارة الشؤون العربية بوضع سلم إداري للمؤسسة .

قرر الجنرال بيجو شهر فيفري 1844م تأسيس المكاتب العربية بصفة رسمية بوضع هياكل إدارية لإخضاع الجزائريين، وتم تقسيم المكاتب العربية لإدارة الشؤون العربية على مستوى القيادة العسكرية، إلى إدارات فرعية بالمقاطعات الثلاث الموجودة بالجزائر، لكل مقاطعة وحدات من الدرجة الأولى وأخرى ثانوية من درجة ثانية وحسب هذا القرار الوزاري تم إنشاء المكاتب العربية، يعمل بها إداريون بكل مقاطعة .

لقد فرض القرار الوزاري المنعقد شهر فيفري 1844م، والمتعلق بالمكاتب العربية توطيد عملية التوسع والاستيطان الاستعماري وتوفير الأمن والاستقرار الفرنسي بالجزائر، بقمع المقاومة الشعبية وحرصت السلطات الرسمية الفرنسية بتعليقاتها لضباط المكاتب العربية، بجعل السكان الجزائريين يقتنعون بسياسة الاحتلال وقبول مؤسساته الحكومية.

3- هياكل المكاتب العربية:

1- التنظيم الإداري الفرنسي : قام الجنرال بيجو بدراسة النظام المتبع من طرف الأمير عبد القادر وعمل على تطبيقه للقضاء على مقومات الشعب الجزائري والاستيلاء على البلاد، ولتعيين السلطات قامت الإدارة الفرنسية بتجزئة المناطق الخاضعة لها ووضعها تحت تصرف الخليفة، بحيث لا تحدد محامه كما تم تعيين بجميع الأقاليم ضابط فرنسي مكلف بتسيير الشؤون الجزائرية يمثل القائد الأعلى، مهمته الإطلاع على الحوادث ودراسة الدفاتر والمراسلات، ويقوم بزيارة القبائل و الدواوير وإظهار العدالة لتغليط المجتمع الجزائري، وكان فريقا منهم يقوم بأعمال الترجمة لفهم أفكار الشعب الجزائري وجباية الضرائب وتسجيل دافعها بدفاتر، والاهتمام بالبحث عن أملاك البايك، وتسبب بعض القادة الجزائريين للاستعلاء عن العائلات الجزائرية والرجال العسكريين خدمة المصالح الفرنسية.

استفادت السلطات الفرنسية من دراسة وضعية المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، حيث استعمل الحكام العثمانيون بالجزائر أمام تزايد ثروات الشعب، مبدأ التفرقة بين القبائل الجزائرية، باعتداهم على قادة ومحاربين من المدن وضواحيها، وقد نشأت علاقات عداوة بين قبائل الخزن والقبائل الداخلية، وبعد إطلاع السلطات الفرنسية للوضعية الاجتماعية عملت على إخضاع السكان بجميع الطرق والوسائل للقضاء على المقاومة الجزائرية، وخاصة بعدما تفتنت لخدمات فرسان قبائل الخزن وإسهاماتها في الإبقاء على النفوذ العثماني بالجزائر، لذا اعتقدت على هذه القوات في تثبيت نفوذها، نظرا لمعرفتهم للبلاد وامتيازاتهم التي كانوا يحظون بها خلال العهد العثماني، لذا أرادت استمالتهم لتحقيق غايتها الاستعمارية، واعتقدت في إدارتها للشعب الجزائري نفس النظام الذي عمل به الأمير عبد القادر في تسيير شؤون الدولة الجزائرية، بتعين الخلفاء والآغاوات والقياد والشيوخ، حيث كانت تسيير كل مقاطعة من قبل مقدم فرنسي، وكل مقاطعة مقسمة لقسمات وكل قسمة إلى خلافات وآغاليك وقيادات، حيث كانت تلك القيادات تعمل بالتنسيق مع المكاتب العربية، كان لكل مكتب عربي مركز إداري فرنسي به ضباط معينون على رأس المكاتب العربية يتحدثون اللغة العربية ويعرفون عادات وتقاليد الشعب الجزائري، الذين سوف يحكمون وفق التسيير الإداري الفرنسي، من خلال حكم هؤلاء الضباط الفرنسيين الذين كان عليهم التصرف بحذر مع القضايا التي يواجهونها، والاهتمام بالعدالة التي لها مكانة خاصة عند الجزائريين فهم أساس التواجد الفرنسي بالجزائر، ومن أهم الشروط التي يجب أن تتوفر فيهم معرفتهم للغة العربية.

سعت الإدارة الفرنسية بالجزائر إلى ضرورة مشاركة الجزائريين في خدمة المصالح الفرنسية وخاصة الشخصيات ذات النفوذ مثل الأشراف لضمهم إلى الصف الفرنسي ومراقبة هؤلاء القادة المعينين، وجعلهم يمارسون نشاطاتهم في حدود معينة ولمدة محدودة، واتبعت بمنطقة الغرب الجزائري عدة سياسات متباينة، نظرا لمقتل العديد من الآغاوات والقياد والخلفاء، الذين قاموا بخدمة المصلحة الفرنسية على حساب المقاومة الشعبية، بينما كانت إدارة مقاطعة قسنطينة أسهل من إدارة مقاطعة وهران لتواجد عدة تشكيلات اجتماعية بها.

اعتقدت السياسة الفرنسية تسهيلات لعملية التوسع وفرض سيطرتها، على جباية الضرائب لتفكير الشعب حتى لا يقوم بمساندة المقاومة الشعبية، وتم إنشاء عدة مراكز عسكرية بها حاميات في كل من تلمسان، معسكر، المدينة، مليانة، سطيف قسنطينة وقالة وجنوب هذا الخط سبدو، سعيدة، تيارت، ثنية الحد، بوغار، باتنة وذلك من أجل السيطرة على قبائل ما وراء التل.

وقد استفادت أقاليم الجزائر الثلاثة من هيئة القضايا العربية ومكاتب من الدرجة الأولى والثانية بالقسمات والدوائر، حيث أنشئت بإقليم قسنطينة مكاتب في كل من القالة، عنابة، قالة، سكيكدة، سطيف، باتنة، أما إقليم الجزائر: دلس، سورالان، البلدة، المدينة، مليانة، شرشال، تيس، شلف، بوغار، ثنية الحد، وإقليم وهران، مستغانم، معسكر، تيارت، سعيدة، سيدي بلعباس، تلمسان، مغنية، وذلك خلال فترة حكم الجنرال بيجو، هذه المكاتب العربية تعمل بالتنسيق مع المكتب المركزي بالإقليم والمكتب المركزي بالجزائر، والذي تكون سلطته بيد الحاكم العام، يتواجد بكل مكتب من مكاتب الإقليم رئيس وضابط مساعد، وضابط صحة، وضابط محاسب يدفع أجور

المخزن ويوجد مترجمان وكتب قاضي أو قاضيان وسكرتير من العرب، ووثيل الضيف ومجموعة شواش .

4- المكتب المركزي : ويضم سكرتيرا إلى جانب سكرتير العرب، و يهتم بالأرشيف والمكاتب الفرعية في الدوائر التي بها ضابط مهم بالقضايا العربية وكتب مترجم وشاوش تمتح لهم منح بسيطة باستثناء المكتب المركزي.

من أهم ضباط المكاتب العربية الذين برزوا في محامهم، النقيب شارا "Charras" في مكتب معسكر، والقائد بوسكي "Bousqué" رئيس مكتب مستغانم، والنقيب لاباسي "Lapasset" في مكتب تنس، وكانت مهمة هؤلاء الضباط جمع المعلومات حول القبائل الخاضعة لقوات الاحتلال الفرنسي، ويحرصون على تسديد أجور المخزن بما يخدم المصالح الفرنسية، ويفصلون في المنازعات بين الفرنسيين والسكان المحليين كما يراجعون أحكام القائد والآغا والخليفة، وبسهرن على الجباية وتسجيل الغرامات ومؤن الحرب منذ عام 1845م.

5- دور المكاتب العربية: كانت مهمة المكاتب العربية جمع المعلومات التي تهم جيش الاحتلال الفرنسي لتقوية نفوذ من خلال إحصاء الأراضي الزراعية والتعرف على مجاري المياه والتنظيمات الاجتماعية وتحديد نوعية المداخل المالية، لكي يتمكن الضابط الفرنسي من جمع كميات هائلة من الأموال عن طريق جباية الضرائب، إلى جانب دراسة التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، من قبل ضباط فرسيين والتي تعتبر ذات أهمية قصوى، وذلك من أجل تحقيق النفوذ الفرنسي وتوسعاته، والعمل على تفكيك وحدة الشعب الجزائري التي كان الأمير عبد القادر يسعى إلى تحقيقها، لكن المساعي الفرنسية بفضل الدراسات الأتروبولوجية من طرف ضباط فرسيين يتكلمون اللغة العربية، استطاعوا القضاء على مشروع الأمير الوحدوي.

وحسب تصريحات دو طونيفيل "Toqueville" عن المكاتب العربية : " الواقع أن النظام الذي تدير عليه في حكم البلد الخاضع لنا هو نفسه في كل مكان مع تعدده في التفاصيل، موظفون مختلفون من الأهالي أقنأهم نحن أو اعترفنا بهم يسرون تحت مسميات مختلفة، هم وسطاؤنا بينهم وبيننا وبحسب ما إذا كان هؤلاء القادة الأهالي قريبين أو بعيدين من مراكز قوتنا نخضعهم لمراقبة دقيقة، وقبل ذلك نفوس في مراقبة أعمالهم، ولكن لا يوجد أي مكان تقريبا نحكم فيه القبائل بطريقة مباشرة إنهم جزائريون الذين يحكمون أعمالهم وهم ضباط المكاتب العربية، لم تكن أية مؤسسة أفيد لسيطرتنا في أفريقيا حتى الآن من المكاتب العربية ولا زالت، لقد قالت هذا الكلام لجان كثيرة وكرره نحن".

كانت سياسة المكاتب العربية، تعمل لمعرفة وضعية المجتمع الجزائري وإخضاع القبائل الجزائرية لخدمة مصالح الاستعمار الفرنسي بالجزائر، والعمل على مراقبة القادة التي تعينهم السلطات الفرنسية الذين يسعون لتحصيل الضرائب، وعمليات الجوسسة ودعم قوات الاحتلال الفرنسي لإخضاع البلاد الجزائرية والقضاء على المقاومة الشعبية الوطنية ماديا ومعنويا بالقضاء على مصادر تمويهم الحربي والعمل على فرض عقوبات للذين ينضمون إلى صفوف قوات المقاومة الشعبية لمقاومة قوات الاحتلال الفرنسي.

استعملت السلطات الفرنسية أساليب سياسية حتى لا تكلف خزينة الدولة الفرنسية خسائر مادية، سعيها منها لتعطيم النظم الاجتماعية الجزائرية، لتحقيق التوسع الاستعماري، فهذه المكاتب العربية كان مخططا لها قبل تنفيذها للقضاء على مقاومة الشعب الجزائري، وإنجاح عملية الاستيطان ولا يتم ذلك إلا بقطع الصلة بين القبائل الجزائرية والمقاومة الشعبية، وكان الأمير عبد القادر يمثل خطرا على سياسة التوسع الفرنسي حيث يقول ريشار "Richard" : " إذا توصلنا من تقسيم السكان الجزائريين إلى معسكرين متحاربين ومتعادين إذن نستطيع وضع حد فاصل بين مجموعتين من السكان هي متوحدة ومتضامنة لمحاربتنا . وحسب تصريحات دو طوكفيل : " .. يجب العمل على تفكيك وحدة الشعب الجزائري بعدم تعريض القوات الفرنسية لخطر وحدة الشعب الجزائري ضد هذه القوات الغازية ... وللاستفادة من التحكم في الشعب الجزائري لا بد من استعمال ما هو موجود، لن يكون ممكنا من الآن وحتى أمد طويل إزالة النظام القبلي الذي هو أكثر المؤسسات الإنسانية ثباتا دون زعزعة مشاعرهم وفكرهم، يسمى العرب بأنفسهم قاداتهم ويلبغى أن نحافظ على هذا الامتياز. ولهم ارسنقراطية عسكرية ودينية، يجب أن لا نبحث أبدا عن تقويضها بل عن التمكن منها وأخذ جزء منها لحسابنا كما فعل العثمانيون ليس علينا الاستفادة من العادات السياسية العربية بل إنه من الضروري أن لا نحاور قواعد قانونهم المدني إلا تدريجيا وشيئا فشيئا ". نجاح وحدة الشعب الجزائري بالنسبة لقوات الاحتلال الفرنسي معناه القضاء على مشروعها الاستعماري، الذي عمل الأمير عبد القادر على تجسيده محاولا توحيد الصف الوطني، بعدما تفتن للمساعي الفرنسية وإصرارها على البقاء بالجزائر، لذا سعت السلطات الفرنسية لإفشال مشروع الأمير عبد القادر، باتخاذ سياسة تعتمد على الخبرة العسكرية لإخضاع الشعب الجزائري .

لقد كانت المقاومة بمنطقة الغرب الجزائري بقيادة الأمير عبد القادر أكثر تنظيما ورفضاً لقوات الاحتلال الفرنسي، لذا سعت القوات الفرنسية القضاء عليها لأنها كانت تشكل خطرا على توسعاتها، عكس ما شهدته منطقة الشرق الجزائري التي لم تقم بأي مبادرة لمقاومة الاحتلال الفرنسي إلى غاية سنة 1836م بالرغم من الانتهاكات والإبادات والجرائم الممنوعة في حق الشعب الجزائري، ويرجع ذلك لنقص وعيهم الوطني وعدم تحملهم المسؤولية. لقد نادى الأمير عبد القادر بالحس الوطني لمقاومة قوات الاحتلال الفرنسي لإدراكه أن المهمة صعبة والمسؤولية الموكلة إليه لحماية الشعب الجزائري وتوطيد البلاد ومقاومة الاحتلال الفرنسي ليست بالأمر الهين، وحسب ما صرح به دو طوكفيل : " سيطرتنا على الشرق أقل اكتمالا منها في الغرب لكنها أكثر تأييدا إلى ما لا نهاية عموما، فسوس الأهالي هناك بطريقة أقل قربا وأقل إلزامية لكن سيادتنا أقل مناقشة للكثيرين من رؤساء الأهالي هم مقدموا أقطاعات تابعة لنا وهم خدام لنا،

سلطتنا هناك ليست مطلقة وليست في خطر في الوقت نفسه يكفي من 20 إلى 22 ألف جندي لحراسة هذا الجزء من البلد الذي يمثل نصف مساحة كل الأقاليم القديمة ويقطنه أزيد من نصف سكانها لم يعرف هذا الجزء الحرب منذ سنوات تقريباسكان الغرب الذين يقيمون بمقاطعتي وهران والجزائر هم تحت سيطرة أشد، محكمون بشدة أكثر وهم الأكثر اهتزازا في الوقت نفسه، سيطرتنا على هؤلاء قوية ولكنها أقل استقرارا هنا أطاحت الحرب بكل الفرديات التي يمكن أن نتلقا ونحصد بعنف كل مقاومة واجمناها ورهقت البلد، وفقرت أهله وحطمت أو طردت قسما من وجهائه العسكريين والدينيين وذهبت لفترة بقوة الأهالي، الخضوع هنا قام لكنه خطر في الوقت نفسه في هذا المكان تراكت ثلاثة أرباع جيشنا "... بين دو طوكفيل الفرق بين المقاومة في كلا من الغرب والشرق الجزائري، فمطقة الغرب آمنت وتمسكت بروح المقاومة وشهدت أخطر المعارك، لرفضها لقوات الاحتلال الفرنسي، حيث بلغ عدد الجيش الفرنسي إلى أكثر من 106 آلاف جندي في مواجهة تعدادها حوالي 800 فارس بقيادة الأمير عبد القادر، والتي بقيت كانت متشبثة بالمواجهة والدفاع عن النفس والأرض والدين الإسلامي كما فضلت الموت في سبيل الوطن، بإمكانات ضئيلة ومجموعة من المتطوعين أقل تنظيما وتدريباً وتجهيزاً، وبمؤونة قليلة وذخيرة غير مضمونة في مواجهة قوات فرنسية أكثر انضباطا وتدريباً من خريجي المدارس العسكرية الفرنسية، مثل سان سير وعناد حربي أكثر فاعلية وذخيرة مضمونة ومؤن متوفرة، تترت هذه القوات الشعبية مواصلة الحرب بمجهودات كبيرة ترفض السيطرة والاستعباد وتفضل الحرية للأرض الجزائرية.

6-أهداف المكاتب العربية:

هدف الإدارة الفرنسية بالجزائر من خلال تشكيل المكاتب العربية، التعرف على بنية المجتمع الجزائري، ومواطن قوته وضعفه لضرب وحدته وإنهالك قواه باستعمال الحرب النفسية في أوساطه للتخلي عن المقاومة الشعبية وإظهار القوة والعنف الفرنسي بالتدخل في شؤون المجتمع الجزائري، والعمل على إحياء الخلافات القبلية بتشكيل الأغاوات ونسب رؤساء القبائل يعملون على مراقبة تحركات قوات المقاومة الشعبية وإعلام قوات الاحتلال الفرنسي بقواتها، وتركزاتها للقضاء عليها وتحطيم مصادر تموينها.

كانت مساعي السياسة الفرنسية في إخضاع السكان الجزائريين تسبب ولائهم لمحاربة قوات المقاومة الشعبية إلى جانب قوات الاحتلال الفرنسي لتحطيم وحدة الشعب الجزائري وإرغامهم على عدم تلبية فرض الجهاد ضد قوات الاحتلال الفرنسي، حيث أجبر الجنرال بيجو الجزائريين على تزويده بالمؤن ونسب القبائل للصف الفرنسي وجعلها تعمل على محاربة قوات المقاومة الشعبية، دون إبقاء هذه القبائل على حياد والعمل على إزالتها ومحاربتها، كان هدفه إذن تحطيم البنية الاجتماعية لكي لا تتحد للمقاومة ضد القوات الغازية المنتهكة لجميع حقوق الشعب الجزائري دون مراعاتها للقيم الإنسانية والأخلاقية.

لقد بقيت بعض القبائل الجزائرية متشبثة بالمقاومة ضد قوات الاحتلال الفرنسي وحسب دو طوكفيل : " يصرح سكان جحوط: جعلتنا الحرب يؤساء كثيرا لكنها لن تؤدي بنا أبدا للتخلي عن عبد القادر، بإمكان الفرنسيين فقط أن يدفعوا بنا إلى اليأس وفقدان الأمل في السلم سوف تسبب لهم كثيرا من الأذى، ما لم نفعله حتى الآن انه يبدنا ألا نترك منزلا قائما بمحيط مدينة الجزائر، يعتقد أنه ممكن تجويعنا بإحراق محاصيلنا...".

واصلت قبيلة جحوط مقاومتها لقوات الاحتلال الفرنسي، ودرت الجهود التي يبذلها الأمير عبد القادر من أجل القضاء على التوسع الاستعماري، بالرغم من المآسي والجوع الذي تكبدته عدة قبائل جزائرية إلا أنها تممت بالمقاومة وعملت على مطاردة المحتل والوقوف في وجه مشاريعه الاستيطانية والاستغلالية لممتلكات الشعب الجزائري، وقد أجبر الجنرال بيجو القبائل الجزائرية على تزويد القوات الفرنسية بالمواد الغذائية، إذا يقول مصرا: " لن يكون لخضوع الأهالي أي معنى من دون دفعهم للضرائب"، كما اعتمدت الإدارة الفرنسية على رؤساء القبائل للعمل على إخضاع قبائل مساندة للمقاومة الشعبية وذلك خدمة للمصالح الفرنسية. يقول دولا مورسيير: "كل قبيلة تخضع لنا هي قبيلة لم تعد قادرة على مواصلة الحرب، لكنها سوف تعود إليها ما إن رت منا فرصة ضعف". وحسب ما صرح به الجنرال بيجو: " إن كل هي هو أن يخضع الأهالي لسلطتنا، هكذا نستطيع إنهاء الحرب"، وقام وزير الحربية المارشال سولت "Solt" بتسطير برنامج يقضي بإخضاع سكان الجزائر للإدارة الفرنسية ويضمن تجنيد شباب جزائريين في الخدمة العسكرية، وتنظيم العائلات والأمر الجزائرية بالمدن المحتلة وتسليم الرهائن من قبل القبائل، وكانت أهداف الجنرال بيجو إخضاع القبائل بصفة نهائية حيث يقول الجنرال مصرا: " تحاورت مع سيدي قدور آغا بني مناصر ووضحت له أنني لا أريد نصف خضوع، أريد إما أصدقاء أو أعداء معنا أو أضدنا".

لاقت عملية إخضاع القبائل الجزائرية من طرف قوات الاحتلال الفرنسي عدة صعوبات وعقبات وقفت في وجهها لسيطرتها، بالرغم من سياسة الأرض المحروقة والمجازر المقتربة ضد الشعب الجزائري، إلا أن بعض القبائل الجزائرية تشبثت بالمقاومة وفهمت المشروع الاستعماري ومخططاته الاستدمارية. اتخذت السلطات الفرنسية ما بين سنتي 1841م - 1843م جميع الوسائل لإخضاع الجزائريين والقضاء على المقاومة بتسليط العقوبات وفرض الغرامات وتهجير الشعب من أراضيه، حيث يرى الجنرال بيجو أن عمليات الإيادة المقتلة في نهب الممتلكات والمواشي وإحراق البيوت والمحاصيل الزراعية، وكذا اختطاف النساء هي السبيل الوحيد لاستسلام القبائل.

كما اعتبر الجنرال ييجو أن قصف المدن بالتقابل وتجويع الجزائريين بحرق محاصيلهم تونها أساس مصدر رزقهم، عملاً إنسانياً، بينما كان يرى وزير الحرية أن هذه السياسة الحرية المتبعة ضرورة لا مفر منها.

وقد عانى الشعب الجزائري في دفاعه من أجل الوطن الاضطهاد من قبل قوات الاحتلال الفرنسي التي سعت إلى سحق المقاومة الجزائرية واستئصال أي مبادرة للمطالبة بالحرية، وعدم قبول الآخر وفكرة رفض الأجنبي المغتصب لأراضيهِ والعابث بمقدساته ومقوماته الثقافية وهويته العربية الإسلامية، التي رسمها الأمير عبد القادر في ذهنية الشعب الجزائري، لذا فضل الجهاد والمقاومة عن طريق التضحية والإيمان، فهل تستطيع قوات الاحتلال الفرنسي اتخاذ طريقة أقل فظاعة من هذه الطرق لتتمكن من القضاء على المقاومة الشعبية ؟

يعتبر الأمير عبد القادر عقبة في وجه السلطات الفرنسية يصعب تجاوزها، بسبب تحركاته ومعاركه المتواصلة، وطول أمد المقاومة الشعبية رغم قلة مصادر تمويها، إلا أنها ظلت عائقاً تسبب لقوات الاحتلال الفرنسي خسائر مادية ومعنوية طيلة 15 سنة من المقاومة والتضحية، وفي هذا الصدد يصرح دو طوكفيل: "الخوف كل الخوف من أن يكون عبد القادر بصدد إنشاء سلطة مركزية لدى العرب المحيطين بنا، سلطة خفيفة الحركة أكثر تجربة وانتظاماً من كل تلك التي توالى على هذه النقطة من العالم على مر العصور، ينبغي إذن حمل النفس على عدم تركه يكمل هذا العمل الخفيف".

تفطنت الإدارة الفرنسية لمساعي الأمير عبد القادر لتحقيق وحدة الشعب الجزائري وفق أسس وطنية تعمل على طرد قوات الاحتلال الفرنسي من البلاد الجزائرية، وللقضاء على هذا المشروع الوطني استخدمت سياسة فرق تسد كبداً للتفرقة بين أبناء الشعب الجزائري لتحطيم البنى الاجتماعية، وفق البرنامج الذي سطره الجنرال ييجو، بتشكيل هيئة المكاتب العربية التي قد أعطت دفعا قويا لعملية الاحتلال الفرنسي.

يعتبر الأمير عبد القادر بالتسبة للسلطات الفرنسية بالجزائر محرك المقاومة الجزائرية! لذا كانت تسعى للقضاء عليه، وكانت مشاريعه تهدد نجاح المشروع الاستعماري الفرنسي والنفقات والجهود الفرنسية المبذولة من أجل الاحتفاظ بالجزائر. لذا استعمل الجنرال ييجو طرقاً سياسية ودبلوماسية من أجل القضاء على مشروع الدولة الجزائرية وإخضاع القبائل للوقوف ضد المقاومة الشعبية باستمالة بعض زعماء القبائل وتخصيص مبالغ مالية مرتفعة لهم، وحسب المارشال سولت: "إن القضاء على المقاومة لا يتم إلا بالقضاء على الأمير عبد القادر شخصياً، وزرع الهوة بينه وبين خلفائه، هذه التفرقة وإن لم تدمر كلية فإنها سوف تحطمه مع مرور الوقت، وتفكك وحدته لإنشاء حكم فرنسي". وحسب الجنرال ييجو في تصريحاته: "إن أصل الداء كله هو عبد القادر إن قتله أو القضاء عليه يعني إزالة الداء". "وحسب دو طوكفيل: "إن القضاء على عبد القادر لن يتم أبداً إلا بمساعدة بعض القبائل الخاضعة له، سننحل شبكة سيطرته بدل أن تتحطم ولإحداث الانشقاق بين العرب علينا استمالة القادة المهمين بوعود أو بهبات سخية ودفع القبائل لليأس من الحرب".

وصرح الجنرال ييجو سنة 1841: "لو لم نخط به شخصياً لعائنا طويلاً في حربنا ضده، إنه رجل مميز، لقد استخدم ما تبقى من قوته بحزم، تماماً كما فعل نابليون في حملته الفرنسية ويجب أن نتوقع مبادرات عديدة من سمته قبل أن يموت في معركة أو غيرها، عبد القادر رغم ألامه الكبيرة لم يتخل عن مسعاه". ويؤكد الجنرال ييجو من خلال تصريحاته مدى خطورة المقاومة الشعبية الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر ومشروعه المقتل في تشييد دولة جزائرية حديثة تعمل على طرد قوات الاحتلال الفرنسي من الأراضي الجزائرية ويصرح قائلاً: "نحن نخطئ عندما نعتقد أننا في مواجهة قائد واحد رفقة 700 و 800 من فرسانه ولكننا في مواجهة دولة بأكملها، إن قوة الأمير تكمن في تأثيره على الجزائريين، لم تقدر على مقاومته قبيلة واحدة إنه أمير حكيم ومحاول الحفاظ على إمارته"، كما اتخذ الجنرال ييجو سياسة تقضي للقضاء على الأمير عبد القادر وهي تخصيص مبالغ مالية للقبض عليه حياً أو ميتاً، وبما أن أي اتفاق مع الأمير بدا مستحيلاً لم يبق إلا محاربه للقبض عليه أو نفيه من البلاد.

لقد كلف الجنرال ييجو سنة 1841م ليون روش بالوصول على فتوى من علماء المسلمين تدين الجهاد الذي يقوده الأمير عبد القادر مفادها: "عندما يغزو المستعمر بلاداً مسلماً فإن سكان هذا البلد عندما يعجزون عن مقاومة المحتل فإنهم يقلون بالعيش تحت سلطتهم على أن يكونوا أحراراً في ممارسة طقوسهم الدينية والمطالبة باحترام نسائهم".

ذُكر ليون روش هذه الفتوى سنة 1842م بعدما أقرها علماء الزوايا، وعلماء القديرون، القاهرة، ومكة، وبعد نشرها شكلت هذه الفتوى خطوة هامة نحو تهدئة الوضع في الجزائر، كما كانت للحرب النفسية آثاراً تمثلت في عرقلة مواصلة المقاومة ضد قوات الاحتلال الفرنسي، وتعكس الفتوى نقص وعي العلماء المسلمين. فهل يعقل للشعب الجزائري الاستكانة لقوات الاحتلال الفرنسي في ظل هذه الأعمال التعسفية ؟

7- محاولات التفاوض مع خلفاء الأمير عبد القادر 1841-1843:

لم تكن نية الجنرال ييجو إجراء الحوار بمقاطعة وهران بل الحرب والعمل للقضاء على العاصمة تأقذمت والاستقرار بمدينة معسكر، أما فيما يخص إقليم الجزائر وال تيظري كان الأمر مختلفاً رغم أن قبائل المنطقة أظهرت مقاومة، وفي أوائل سنة 1841 صعب على جيش الاحتلال الفرنسي مطاردة قوات المقاومة الشعبية نظراً لصعوبة الجبال المحيطة بالنتيجة، كان هناك ثلاثة خلفاء أقوياء يشكلون خطراً عليهم وهم خليفة مليانة بن علال وخليفة المدية البركاني وخليفة سباو بن سالم.

لذا كتبت السلطات الفرنسية سيدي مبارك عن طريق الجنرال لامورسيير والمقدم بليسي وشار المارنثال سولت على ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة لجعل هذا الحوار ليس تحالفاً أو مجرد عملية سلم وليس على الخليفة إعلان حياده بل محاربة قوات المقاومة الشعبية التي تقاوم قوات الاحتلال الفرنسي، وبهذا سوف تحقق تحالفاً قوياً معه. " ولكن الجنرال ييجو كان يرجو فقط حياد الخلفاء لأن ظروف الحرب لا تسمح بإملاء مثل هذه الشروط المقترحة من وزير الحرب سولت والتي تنوي السلطات الفرنسية تحقيقها في تحالفها مع زعماء القبائل يقول وزير الحرية سولت : " تعترف لهم السلطات الفرنسية بأحقيتهم في أراضي محددة ويمكنهم الحصول على هبات ومنح سنوية ونشترط عليهم الخدمة العسكرية والجزية القانونية، وأن تعيش عائلاتهم في مدينة محمية ويتم تسليم الرهائن. " وعطى الجنرال ييجو تعليمات للجنرال براقاي هليي "Braguey- d'Hillier" في 14 سبتمبر 1841م، إن قبل سيدي مبارك الحوار معنا يمكنه الحفاظ على بيلكه ويحصل على مساعدات مالية هامة، لم يوجب الجنرال ييجو على الخليفة حياده بل الحكم باسم فرنسا ولأجلها، وفي أواخر فيفري 1842م من العروض التي عرضها الجنرال ييجو على الخليفة بن علال وهو أكثر أعوان الأمير عبد القادر دهاء وخبرة مبلغ مالي قدره 500,000 فرنك وإعادة أملاكه الواسعة ومعاشا قدره 50,000 فرنك سنوياً على شرط تسليم نفسه لفرنسا والإقامة بمدينة الجزائر أو القليعة، وصل جواب بن علال في 12 مارس 1842م : " ليكن في علمك أنني أحكم وقاقتل وأعفو ضمن منطقة تمتد من جبل الدخلة إلى وادي الفضة وماذا أراك تعرض علي مقابل الحكم الذي مارسه لإعلاء كلمة الله وفي خدمة سيدي الأمير عبد القادر ؟ أراك تعرض علي أملاكي تلك التي سوف أستعيدها بالبارود. مثلاً فقدتها بالبارود وتعرض علي المال والخيانة. "

حاول الجنرال ييجو استئالة وإغراء خلفاء الدولة الجزائرية الذين كانوا تحت قيادة الأمير عبد القادر للتخلي عن المقاومة الشعبية والالتحاق بالصف الفرنسي مقابل مبالغ مالية وأراضي تمنحها لهم السلطات الفرنسية وهذا من أجل سبب تأييد هؤلاء الخلفاء خدمة للمصالح الفرنسية، وحتى يتسنى للقوات الفرنسية الذهاب بأكبر عدد من قواتها إلى منطقة الغرب الجزائري للقضاء على المقاومة الشعبية، ولم تحاول فتح مجالات للتحاور مع خلفاء الجهة الغربية لأنها كانت تعرف نواياهم مسبقاً ولأنهم يعملون بالقرب من الأمير عبد القادر لذا حاولت غلق جبهة من جبهات الحرب للاستفادة من هذه القوات الفرنسية بالجهة الغربية لأن الجهة الشرقية لم تسبب لقوات الاحتلال الفرنسي أي قلق، كانت هناك جبهتان أرادتا التخلص من الجهة الوسطى حتى تتمكن من القضاء على المقاومة الجزائرية بالجهة الغربية التي كانت أكثر شدة وإصراراً على مقاومة قوات الاحتلال الفرنسي وطردها من الأرض الجزائرية.

بعدما لجأت قوات المقاومة الشعبية إلى المغرب سنة 1843م، عرض الجنرال ييجو على الأمير عبد القادر أن يجعل بقية حياته لخدمة ومشرفة إن هو طلب العفو من فرنسا ولم ير أي مانع من إجراء روش مفاوضات سرية معه، وكتب روش للأمير عبد القادر قائلاً : " لقد قلت لي بأنك تستقبل أي اقتراح على أن لا يعارض الدين أعلم جيداً أنك تفكر في السلم لقد أراد ييجو أن يجعلك تعيش حياة شريفة، واقترح عليك الذهاب إلى مكة هناك يمكنك العيش مع عائلتك، و مئة من تحتارهم أما رجالك الذين لا يتبعونك فعليهم الأمان وستقبض كل سنة مبلغاً مالياً تقضي به حاجاتك. " كان رد الأمير عبد القادر إلى ليون روش قائلاً " إن اقتراحاتكم بعيدة عن المعقول تيف تريدوني أن أذهب إلى منفى أستطيع الذهاب إليه بقواتي. "

رفض الأمير عبد القادر سنة 1844م التفاوض وقبول مقترحات الجنرال ييجو عن طريق ليون روش، لأن وضعيته كانت تسمح له بالذهاب إلى بلاد المشرق عن طريق الصحراء التي لم تكن تحت الحكم الفرنسي، ولم يكن يرغب في التخلي عن الجزائر لأن محمته أصبحت أكثر تعقيداً مما كانت عليه بعد تخطيم العاصمة المنتقلة الزمالة ولجوء قوات المقاومة الشعبية إلى المغرب، كانت السلطات الفرنسية بعد القضاء على معظم مناطق نفوذها بالجزائر تحاول استئالة للتخلص منه وحتى لا يتمكن من جمع قواه وتجديد المقاومة بأكثر حدة وصلابة على ما كانت عليه، لذا لجأت للطرق الدبلوماسية التفاوضية والإغرائية رغم علمها أن الأمير عبد القادر في مركز ضعف بعد استنزاف قواته وقدراته الحربية، ولكنه رفض هذه الإغراءات الفرنسية لأنه كان يدرك أن المعركة لم تنته رغم المآسي والمعاناة إلا أن تلك القوات ظلت ودية للقضية الوطنية .

- الخاتمة:

استطاعت السلطات الفرنسية من فهم المنظور السوسولوجي لدى الجزائريين وذلك نظراً لغياب السلطة المركزية وانهارها في ظل الفكر القبلي، لذا تمكنت قوات الاحتلال الفرنسي من استئالة بعض القبائل الجزائرية للاستفادة من خدماتها وضرب الهوية وزرع التفرقة بين القبائل باستخدام النزعات القبلية لأن هذه العملية تعتبر نقطة ضعف البنية الاجتماعية، وتمت معرفة ذلك اثر الدراسات الأثروبولوجية الفرنسية لبنية المجتمع الجزائري وترتيباته بفضل المكاتب العربية التي كان لديها دور كبير في توطيد أركان الاستعمار الفرنسي بالجزائر. لقد ساهمت المكاتب العربية بالجزائر في بسط النفوذ الاستعماري من خلال التفرقة بين الجزائريين وتخطيم سبل المقاومة الشعبية تجسيدا لمشروعها الاستيطاني بعدما لاقت المقاومة الشعبية بقيادة الأمير عبد القادر عدة عراقيل وصعوبات أضعفت مشروعها الراي لتحرير الوطن الجزائري وطرد قوات الاحتلال الفرنسي، لقد كان المشروع الفرنسي أكثر جاهزية عدة وعدداً وفي جميع الميادين لإخماد مشروع الأمير عبد القادر الوجودي، الذي واجه فسقاً اجتماعياً مشتبكاً وثقافة تقليدية بسيطة إلا أنه استطاع من مقاومة السياسة الفرنسية وجزالته مدة 15 سنة، وفق مبدأ الاعتماد على النفس، وقد استطاعت السلطات الفرنسية من تجسيد مشروعها الاستعماري بعد السيطرة على الوضع الاجتماعي باستغلال القبليات في تفكيك وحدة الشعب الجزائري.

Germain, (R), op.cit., P. 4. -

- الكسي دوطوكفيل، المصدر السابق ، ص. 115.
- نفسه، ص. 241.

Germain. (R), op.cit., P. 23. --

Ibid, P. 26. -

Ibid,P. 33. -

Germain. (R), op.cit.,P. 16. -

Ibid, PP. 19 -20. -

Ibid, PP. 35 -37. -

- الكسي دوطوكفيل، المصدر السابق، ص. 241.
- نفسه، ص ص، 123-124.

Germain. (R), op.cit.,P. 42. -

- الكسي دوطوكفيل، المصدر السابق، ص. 44.

Germain. (R), op.cit., PP. 47-49. -

-ليون روش:ولد في قرونبل في 1810، كان مترجما في 1835 رافق الجنرال
كلوزل في حملته على المدينة، صار إلى صف الأمير بعد معاهدة تأفنة أرسله
الجنرال ييجو إلى القيروان ليأتي بفتوى تحريم الجهاد، وشارك في 1845 بلجنة
مناقشة الحدود المغربية، توفي سنة 1901 ينظر:

Daumas.(E), Correspondances du Capitaine Daumas

Consul à Mascara ,1837-1839, Collection de Documents

Inédits par le Gouvernement Général d'Algérie, éd.

Jourdan, Paris, 1921., P. 52.

Roche.(L),Dix Ans à Travers l'Islam 1834-1844 ,éd. Didot,

Paris,1884, T. 1, P. 241. -

Germain. (R), op.cit, P. 53. -

Ibid, P. 79. -

Ibid, P. 63- 65. -

Daumas.(E), La Grande Kabylie, Etude Historique, éd.

Hachette, Paris, 1847, P. 219. -

Ibid, P. 219. -

Ibid, P. 58. -

Roche.(L), Trente Deux Ans à Travers l'Islam 1832-1864

,éd. Didot, Paris,1887, T. 2, PP. 380-381.

الهوامش:

Hugonet.(F), Souvenirs d'un Chef de Bureaux Arabe, éd.

Levry, Paris, 1858, p. 5-6. -

- Yacono, (X), Les Bureaux Arabes et l'Evolution des
Genres de Vie Indigènes dans l'Ouest du Tell Algérois
Dahra Chélif Ouarsenis Sarsou, éd. Larousse, Paris, 1953,
T. 1, PP. 10-11.

Germain.(R),La Politique Indigène de Bugeaud, éd.

Larousse, Paris,1955,T. 2,P.194. -

De Reynaud

Pillissier.(E),AnnalesAlgériennes,éd.Militaire,Paris,1854,T.1,
PP.291 -300. -

Julien.(Ch.-A), Histoire de l'Algérie Contemporaine
Conquête et Colonisation (1827- 1871), éd. PUF, Paris,
1979, p. 334 -335. -

Yacono.(X), op. cit., PP. 13 -14. Julien.(Ch.-A),

op.cit., P. 334 -335. Ibid, PP. 334 -335.

Yacono, (X), op. cit., P. 15. -

Bugeaud.(T-R), Exposé de l'Etat Actuel de la Société Arabe,
du Gouvernement et de l'Egislation qui la Régit, éd.

Imprimerie du Gouvernement, Paris, 1844, ,PP. 71 -78.

Cavignac.(E), La Régence d'Alger Note sur l'Occupation,
éd. Magen,Paris,1839, P.56. -

Poujoulat.(J), Études Africaines, Paris, 1847, T. 2, PP. 139 -
140.

Ibid, PP. 141 -143. -

Germain. (R), op.cit., PP. 263 -265. -

Hugonet.(F), op.cit., PP. 8 -10.

- الكسي دوطوكفيل، نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان
،ترجمة إبراهيم صحراوي،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، 2008، ، ص. 123.
Azan.(P), Les Grands Soldats de l'Algérie,Alger, 1930, P.
14. -

Richard.(Ch), Etude sur l'Instriction du Dahra 1845-1846,
Alger, 1846, PP. 185-186. -

- الكسي دوطوكفيل، المصدر السابق، ص ص، 25-27.